﴿تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۛ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ٤٩﴾ [هود: 49]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ من سردِ القصَّةِ إلى طلبِ الاعتبارِ ممّا جاء فيها

لمّا أخبرتِ الآياتُ السّابقة عن قصّة نوح ﷺ على الوجه الأكمل، وبيّنَت اجتهادَه "في إبلاغ الإنذار من غير مراعاة إقبال ولا إدبار، وكانت مع ذلك دالّة على علم تامّ، واطّلاع على دقائق لا سبيل إليها إلّا من جهة الملك العلّام، فهي على إزالة اللّبس عن أمره ﷺ أوضحُ من الشّمس، قال تعالى منبّهًا على ذلك: ﴿تِلۡكَ﴾، أي هذه الأنباء البديعة الشّأن، الغريبة الأمر، البعيدة عن طوق المعارض"[1]، إنّما هي من وحي الله تعالى، فهو انتقالٌ من قصّة نوحٍ ﷺ إلى الإشارةِ إلى حكمةِ إنزالِها وذكرِها، وهو الصّبر على كفّار مكّة كما صبر نوحٌ على قومه، فإنَّ العاقبة للتَّقوى.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَنۢبَآءِ﴾: أصلُ (نبأ): الإتيانُ منْ مكانٍ إلى مَكانٍ، يُقالُ لِلَّذي يَنْبأُ منْ أرضٍ إلى أرْضٍ: نابِئٌ. وسَيْلٌ نابِئٌ: أتَى منْ بَلَدٍ إلى بَلَدٍ، ورَجُلٌ نابِئٌ مِثْلُهُ. ومنْهُ النَّبأُ: الخَبَرُ؛ لأنَّهُ يأتي منْ مَكانٍ إلى مَكانٍ[2]، والأنْباءُ: جَمْعُ نَبَأٍ، وأنباءُ الغَيْبِ: الأخبارُ المُغَيَّبَةُ عَنِ النّاسِ أو عَنْ فَرِيقٍ منْهُمْ[3]. والنَّبْأةُ: الصَّوْتُ؛ لِأنَّ الصَّوْتَ يَجِيءُ منْ مَكانٍ إلى مَكانٍ، ومَنْ هَمَزَ لفظَ النَّبِيِّ ﷺ فَلأنَّهُ أنْبأ عَنِ اللهِ تعالى[4]، قال سيبويه: ليس أحد من العرب إلّا ويقول: (تنبّأ مسيلمة)، بالهمز،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/305.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (نبأ).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/92.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (نبأ).

غير أنّهم تركوا الهمز في لفظِ النّبيّ، كما تركوه في الذّريّة والبريّة والخابية، إلّا أهل مكّة، فإنّهم يهمزون هذه الأحرف[1]، والمقصود بالأنباء في الآية: جَمْعُ نَبَأٍ، وهو الخَبَرُ الّذي له أهميَّةٌ.

2) ﴿ٱلْغَيْبِ﴾: أصلُ (غيب): يَدُلُّ على تَستُّرِ الشَّيءِ عَنِ العُيُونِ، ثُمَّ يُقاسُ. منْ ذلك الغَيْبُ: ما غابَ، ممّا لا يَعْلَمُهُ إلّا اللّهُ[2]، وكلُّ مكانٍ لا يُدْرَى ما فِيهِ فَهُو غَيْبٌ، وكذلكَ المَوْضِعُ الّذي لا يُدْرَى ما وراءَه، وجمعُهُ غيوبٌ[3]، ويُقالُ للشَّيءِ: غَيْبٌ وغائِبٌ باعتباره بالنّاس لا باللّه تعالى، فإنَّه لا يغيب عنه شيءٌ، كما يَعزُبُ عنه مثقال ذرَّة في السَّماوات ولا في الأرض[4]. والغَيْبُ ضِدُّ الحُضُورِ وضِدُّ المُشاهَدَةِ، والمقصودُ بالغَيبِ في الآية: ما خَفِيَ وغابَ عن عِلْمِ النّاسِ واسْتأثَرَ اللّهُ بِعِلْمِه.

3) ﴿نُوحِيهَآ﴾: أصلُ (وحى): يَدُلُّ على إلقاءِ عِلْمٍ في إخْفاءٍ أو غَيْرِهِ إلى غَيرِكَ. والوحْيُ: الإشارةُ السَّريعة، ولتضمُّن السُّرعة، قيل: أمْرٌ وحْيٌ؛ وذلك يكون بالكلام على سبيل الرَّمز والتَّعريض، وقد يكون بصوتٍ مُجرَّدٍ عن التَّركيب، وبإشارة ببعض الجوارح، وبالكتابة[5]، وكُلُّ ما أَلْقَيْتَهُ إلى غَيْرِكَ حَتَّى عَلِمَهُ، فهو وحْيٌ كيفَ كانَ، "والوحي أيضًا: الإشارة، والكتابة، والرّسالة، والإلهام، والكلام الخفيّ، وكلّ ما ألقيته إلى غيرك. يقال: وحيت إليه الكلام وأوحيت، وهو أن تكلّمه بكلام تخفيه"[6]، والوحْيُ: الإعلامُ منَ اللّهِ بِواسِطَةِ المَلَكِ. وأوْحى إليه: بَعَثه، وأوْحى إليه: أَلْهَمَه[7] والمقصود بالوحْيِ في الآية: إفادَةُ المَقصُودِ بِطَرِيقٍ غَيْرِ الكلام[8].

4) ﴿ٱلْعَقِبَةَ﴾: أصلُ (عقب): يَدُلُّ على تَأْخِيرِ شَيءٍ وإتيانِه بعدَ غيرِه، وكُلُّ شَيْءٍ يَعْقُبُ شَيئًا فهو عَقِيبُهُ[9]، قال الرّاغِبُ: والعَقِبُ: مُؤخَّر الرِّجْل، والعاقِبَةُ والعُقْبَى يَخْتَصّانِ

(1) الزَّبيديّ، تاج العروس: (نبأ). الزَّبيديّ، تاج العروس: (نبأ).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غيب).
(3) الأزهري، تهذيب اللّغة: (غيب).
(4) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (غيب).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (وحي).
(6) الجوهريّ، الصّحاح: (وحي).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (وحي).
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/31.
(9) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (عقب).

بالثَّواب، نَحْوُ: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأعراف: 128]، وبالإضافةِ قَدْ يُستَعمَلُ في العُقُوبَةِ، نحو: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ [الرّوم: 10][1]. وسُمِّيَت بذلك؛ لأنَّها تَتْلُو الذَّنْبَ، من تَعَقَّبَهُ: إذا تَبِعَهُ، وتَعَقَّبْتُ الرَّجلَ، أي: أخَذْتَه بذَنْبٍ كان منْهُ. والجمع: عُقوباتٌ[2]. والمقصودُ بالعاقِبَةِ في الآية: الحالَةُ الَّتي تَعْقُبُ حالَةً أُخْرَى، وحقيقَتُها نهايةُ أمْرٍ منَ الأُمُورِ وآخِرُهُ.

5) ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾: أصْلُ الوِقايَةِ: هو دَفْعُ شَيْءٍ عن شَيْءٍ بِغَيْرِهِ، يُقال: وقَى نَفْسَهُ من العَدُوِّ بِسِلاحِهِ، أيْ: دَفَعَهُ بِهِ، وفُلانٌ ما له من واقٍ، أيْ: من دافِعٍ. والوِقايَةُ: ما يَقِي الشَّيْءَ، واتَّقِ اللّٰهَ: تَوقَّهُ، أي: اجْعَلْ بَيْنَكَ وبَيْنَهُ كالوِقايَةِ. قالَ النّبيّ ﷺ: «اتَّقُوا النّارَ ولَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ»[3]، وكَأنَّهُ أرادَ: اجْعَلُوها وِقايَةً بَيْنَكُمْ وبَيْنَها[4]، والتَّقْوَى: اتِّخاذُ الوِقايَةُ والحِمايَةِ من الشَّيْءِ، والتَّوقِّي: الحَذَرُ. وتأْتي الوِقايَةُ بمعنى الحِفْظِ من الأذَى والضَّرَرِ[5]. والمقصود بالمتَّقين في الآية: الَّذين يتحرّزون من المهالك في الدُّنيا[6].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

قصصُ الرُّسُلِ السّابقين نبراسُ هدايةٍ لا مُجرَّد حكايةٍ

قال اللّٰه تعالى بعد قِصَّة نوح، وبيان العبرة فيها: تلك القِصَّةُ الّتي قصَصْناها عليك - يا مُحمَّدُ ﷺ - عن نوحٍ وقَومه، هي من أخبارِ الغَيبِ السّابقةِ، نوحيها إليك لتَعلَمَها، ما كنتَ تعلمُها، ولا

(1) الرّاغب، المفردات: (عقب).
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (عقب).
(3) رواه أحمد في مسنده، عن عدي بن حاتم ﷺ، رقم الحديث: (18253).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (وقي).
(5) السّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وقي)، والمناويّ، التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 340.
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (وقي)، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/432، والمناويّ، التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 106.

يعلَمُها أيُّ أحدٍ من قومك، من قبلِ هذا القرآنِ، فاصبر على تكذيب قومكَ وأذاهم لكَ، واجتهد في تبليغ رسالتك، وجدّ في إيضاح الرِّسالة القرآنيَّة، واصبر على الشَّدائد، كما صبر نوح ﷺ على أذى الكفّار، واعلم أنَّ العاقبة والنَّصر والنَّجاة لكَ، كما كانت لنوح في هذه القِصَّة، وأنَّ النّصر يكون من بعدكَ لأهل التَّقوى الَّذين يطيعون الله، ويتجنَّبون المعاصي. ونحن نوحيها إليك لتكون لك هداية وأسوة، فيما لقيه غيرك من الأنبياء، وتكون لقومك مثالًا وتحذيرًا، لئلا يصيبهم إذا كذّبوك مثل ما أصاب هؤلاء وغيرهم من الأمم المعذّبة[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ استعمالِ إشارةِ البعيدِ:

الإشارة بالبُعد للنّبأ العظيم تناسبُ شأنه وأهميّته

آثر النّظم الكريم التّعبير باسم الإشارة الدّالّ على البعد، في قوله تبارك اسمه: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَۖ﴾، تفخيمًا لشأنها "أي هذه الأنباء البديعة الشّأن، الغريبة الأمر، البعيدة عن طوق المعارض، العليّة الرّتب عن يد المتناول"[2]، فالإشارة إلى الأنباء الواردة في قصّة نوح ﷺ الّتي يوحِيها الله إلى رسوله الأكرم؛ فلكونها أنباءً عظيمة خطيرة الشّأن، أشار إليها باسم الإشارة الدّالّ على البعد[3]، أو أنّ المراد بالبعدِ البعدُ الزّمني؛ فأشار بالبعيد؛ لأنّ بين قصّة نوح ﷺ، وبينَ النّبيّ ﷺ مُددًا لا تُحصى[4].

توجيه المتشابه اللّفظيّ:

تأنيث اسم الإشارة باعتبارِ القصّة والتّذكير باعتبارِ النّبأ

آثر النّظم الكريم في قوله عزّ ذكره: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/441، 442، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/49، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 383، والزّحيلي، التّفسير المنير: 2/1047.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/305.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3714.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/165.

﴿نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ﴾، التّعبير باسم الإشارة ﴿تِلۡكَ﴾، بينما في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ﴾ [آل عمران: 44]، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ﴾ [يوسف: 102] فآثر استعمال ﴿ذَٰلِكَ﴾، ووجهه: أنَّه استعمل ﴿تِلۡكَ﴾ إشارةً إلى القصّة، فكان التّأنيث باعتبار التّأنيث في لفظ القصّة[1]، ولذلك قال: ﴿نُوحِيهَآ﴾، بينما أشار في قصّة يوسف ﷺ إلى النّبأ الواحد، وهو نبأ يوسف وإخوته.

نوعُ حرفِ ﴿مِنۡ﴾ ودلالتُه:

أنباءُ الغيبِ في القرآن إشاراتُ الـوحـي إلى الأذهان

أدخل النّظم الجليل حرف الجرّ ﴿مِنۡ﴾، في قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ﴾، وهي تحتمل أن تكون بيانيّةً، أي أنّ هذه الأنباء من جنس أنباء الغيب، أي ليست من قبيل سائرِ الأنباءِ، بل هي نسيجُ وحدِها، منفردةٌ عمّا عداها، فهي لبيان جنس الأنباء[2]، وعليه فتكون الإشارةُ إلى قصّة نوحٍ المذكورةِ، وتحتمل الدّلالة على التّبعيض، أي أنّ هذه بعضُ أنباء الغيب، وليست كلّها؛ فإنَّ الله تعالى قد قصَّ على محمَّدٍ ﷺ بعضَ تلك الأنباء.

نكتةُ التّعبيرِ بلفظ النّبأ:

أنباءُ السّابقين جاءت للاعتبارِ لا لمجرَّدِ الإخبارِ

آثر النّظم الكريم في قوله جلّ شأنه: ﴿تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ﴾، استعمالَ لفظِ النّبأ دون الخبر؛ لأنّ النّبأ هو العظيم من الأخبار الّذي يحقّق فائدة العلم[3]، وهو الخبر ذو الشّأنِ، وقصّة نوح ﷺ فيها من الغرائب والعجائب العظيمة، فوصفُها بالأنباء أدقُّ في البيان، وللإيماءِ إلى ضرورة الاعتبارِ بهذه الأنباءِ، فهي ليست مجرَّد خبرٍ يُروى، أو حدثٍ يُطوى.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/215.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/215.
(3) الرّاغب، المفردات: (نبأ).

سرُّ التَّعريفِ بالإضافة:

أنـبـاءُ الـقـرآنِ وحيٌ مخصوصٌ ودرسٌ مقصود

آثر النّظم الكريم في قوله جلّ شأنه: ﴿تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ﴾، إضافة الأنباء إلى الغيب، فآثر التّعبير بقوله: ﴿أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ﴾، دون أن يقول: (تلك من الأنباء نوحيها إليك) بتعريفِها بأل؛ وذلك للدّلالة على أنّها أنباء مخصوصة بالغيب الّذي لم يُعْلَم من قبل. فالأنباءُ كانت غيبًا ثمّ انكشفت بالوحي الموحى به، والغيب ما لا تدركه الحواسّ، ولا يُعْلَم ببداهة العقل، فأنباءُ الغيبِ هي "الأخبار المغيّبة عن النّاس أو عن فريق منهم، فهذه الأنباء مغيّبة بالنّسبة إلى العرب كلِّهم، لعدم علمهم بأكثر من مجملاتها، وهي أنّه قد كان في الزّمن الغابر نبيّ يقال له: نوح ﷺ أصاب قومه طوفان، وما عدا ذلك فهو غيب"[1].

سرُّ استعمال: ﴿نُوحِيهَآ﴾:

إيـمـاءُ الإيـحـاءِ إلى ضـــرورةِ الاعـتـبـارِ في الدَّعوةِ والاتِّعاظ باليقينيّات

في قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ﴾، آثر النّظم الكريم استعمال لفظ ﴿نُوحِيهَآ﴾، دون غيره من الألفاظِ نحو (ننزلها)؛ وذلك للتّذكير بأنّها إيحاءٌ من الله، يجب الإيمان به، والاعتقاد بصدقه، وأنّ العلم به ليس موضع اجتهاد أو انتقاض، وأنَّ المرادَ بالإيحاء هنا هو تخصيصُ خطابِ النَّبيِّ ﷺ بها، فهو إيحاءٌ منه تعالى للنَّبيِّ بقصدِ العملِ بها على وجْه الخُصوصِ، كما أنَّ في استعمال لفظ الإيحاء دون الإنزال زيادة عنايةٍ واهتمام، إذ الإيحاء هو إيماءٌ خفيٌّ، فالآيةُ تُشير إلى ضرورةِ استنباط المعاني للاعتبارِ الخاص بها في الدَّعوةِ إلى الله تعالى، ومعنى أنباء الغيب المذكورة هنا، أي: "من جنسها، بمعنى أنّها ليست من قبيل سائرِ الأنباءِ، بل هي نسيجُ وحدِها، منفردةٌ عمّا عداها أو بعضِها"[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/92.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/215.

نكتة التّعبير بالمضارع:

إيحاءُ الأنباءِ متجدِّدٌ في نفوسِ المؤمنين بالصَّبرِ واليقين

آثر النّظم الكريم في قوله عزّ ذكره: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَۖ﴾، التّعبيرَ بالفعل المضارع، إشارةً إلى أنّ الإيحاءَ مستمرٌ في تأثيرِه وأثره في نفوس المؤمنين، وأنّه "لا يزال يُجدّد له أمثالها"[1]، فهو إخبار عن تجدّد الحكاية للأحوال الماضية، الّتي انصرمت أحداثها في الزّمان الغابر، كما أنّ التّعبير بالفعل المضارع هنا يفيد التّصوير، باستحضار الصّورة لبيان حالة الأنباء، بأنّها جاءت بصورة الوحي[2].

غرضُ تقييدِ الفعل:

ذكرُ الغايةِ تنبيهٌ على البدايةِ وإشارةٌ إلى قيمةِ الهدايةِ

في قوله تبارك اسمه: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَۖ﴾، دلّ تقييدُ إيحاءِ هذه الأنباء الغيبيّة بأنّه كائنٌ إلى النّبيِّ ﷺ على اختصاصه بهذا الوحي، وهذا يدلُّ على أنّ هذه التّفاصيل المذكورة لم تُذكر سابقًا، كما أنَّ حرفَ (إلى) دالٌّ على انتهاءِ الغايةِ؛ إذِ المقصودُ بها هو رسولُ الله ﷺ، وهي إشارةٌ إلى مبدأ الإيحاءِ وأنَّه من الله تعالى، فهو تنبيهٌ على البدايةِ، وتصريحٌ بالغايةِ، مع ذكرِ الوسيلة التي بينهما، وفيه مدحُ جبريل عليه الصَّلاةُ؛ إذ أدَّى أمانةَ الوحي بأن أوصلها إيصالًا خالصًا من الزِّيادةِ والنُّقصان.

دلالة نفي العلم:

نفيُ علمِ الغيبِ للنَّبيِّ حُجَّةٌ على أنّ علمَه بالوحي

جاء الخبر في قوله جلّ شأنه: ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَاۛ﴾، دليلًا على صحّة الوحي، فنفيُ علْمها من قبل، ثمّ الإخبار بها الآن أسلوبٌ من الحِجاج، إثباتًا لكون النّبيّ ﷺ إنّما أخبر بها وهي ليست من عنده، بل من عند علّام الغيوب، كما يتضمّن ذلك إبطالًا للأساطير الّتي زيّفت الحقائق، وروّجت للأباطيلِ في

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/305.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/215.

قوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ﴾، كما أنّ فيه جانبًا من التّحدّي، بالإتيان بمثل القرآن أو بعضه، بإيراد أنباء الغيب الّتي لم تكن معلومة من قبل.

نكتةُ إيثارِ نفي الفعل الماضي:

توكيدُ المعاني عند ذكرِها مقدَّمٌ على مجرَّدِ ذكرِها

آثر النّظم الكريم في قوله جلّ شأنه: ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ﴾ النّفيَ بإدخال ﴿مَا﴾ النّافية على الفعل الماضي، دون أن يقول: (لم تكُنْ)؛ وذلك أنَّ نفيَ الماضي بلفظ ﴿مَا﴾، آكدُ من نفي الزّمن الماضي بإدخال (لم) على المضارع، ولو قال: (لم تكن) بالمضارعِ؛ فإنَّ دلالة نفي الكون المستمرّ، ليس لها فائدة في هذا السّياق، فليس الغرض بيانَ تجدّد وجوده في انتفاء المعرفة، بل المراد هو مطلق نفي عدم العلم بتلك الأنباء الغائبة في غياهب التّاريخ، فالنّفي بالماضي، هو نفي من الأصل؛ فلذا كان آكد.

نكتةُ التّوكيدِ بضميرِ الفصل:

الإيماءُ إلى دحضِ تُهم العابثين تعريضًا بمن أرادَ رميَ سيّد المرسلين

صرّح بليغ المنظوم بالضّمير المستتر في قوله تعالى: ﴿تَعْلَمُهَآ﴾، فقال عزّ ذكره: ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾، ولم يقل: (ما كنت تعلمها ولا قومك)، مع جواز العطف على الضّمير المتّصل، لوجود الضّمير الفاصل (ها) في ﴿تَعْلَمُهَآ﴾، ووجود فاصل آخر وهو ﴿وَلَا﴾؛ وإنّما أظهره وصرّح به للتّأكيد، فجاء بالضّمير المنفصل العائدِ على النّبيّ ﷺ، تأكيدًا لكون النّبيّ ﷺ من الّذين لا يعلمون هذا الغيب قبل البعثة، للقَطْع بكونه إنّما عَلِمه الآن عن طريق الوحي، والمعنى "أنّ قومك الّذين أنت منهم على كثرتهم، ووفور عددهم، إذا لم يكن ذلك شأنَهم، ولا سمعوه ولا عرفوه، فكيف برجلٍ منهم، كما تقول: لم يعرفْ هذا عبدُ الله ولا أهل بلده"[1]،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/166.

وفيه إيماءٌ إلى تكذيبِ من يتَّهم النَّبيَّ ﷺ بأنَّه تعلَّم القرآنَ من بشرٍ أعانوه عليه، فكان ذكرُ الضَّميرِ إيماءً تعريضيًّا بليغًا، أي: أنت على وجه الخصوصِ لم تكن تعلم ذلك.

بلاغةُ العطفِ انتقالًا:

التَّرقي من القليلِ إلى الكثير، أو التَّدلي من الأعلى إلى الأدنى

في قوله عزّ ذكره: ﴿أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ﴾، ترقٍّ من القليل إلى الكثير باعتبار القلّة والكثرة، كقوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: 120]، أو تدلٍّ من الأعلى إلى الأدنى باعتبارِ الرُّتبةِ، والمعنى: إنّ قومك على كثرتهم لم يعرفوه، فكيف برجل منهم[1]، والفائدة في قوله تعالى: ﴿وَلَا قَوْمُكَ﴾، أنّ قومك مع كثرتهم ليسوا على علمٍ بالقصص والأخبار، وأنت أحدُهم، فلم يمكن تعلّمُك منهم، ولم يثبت أنّك خالطت غيرَهم، فثبت أنّ ما علمتَه لم يكن إلّا بالوحي[2].

احتمالُ الجمل الخبرَ أو الغيب:

الإخبار يؤكّد صدق المخبِر، والحال يصوّر الكيفيّة

يتضمّن قوله جلّ شأنه: ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ﴾ ثلاث جمل تحتمل كونها جملًا خبريّة أو حاليّة، وهي قوله تعالى: ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾، وقوله: ﴿نُوحِيهَآ﴾، وقوله: ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ﴾، فقوله: ﴿نُوحِيهَآ﴾ خبرٌ ثانٍ أي: مُوحاةٌ إليك، أو حال منْ أنباء الغيب، أي: مُوحاةً إليك، ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ﴾، خبرٌ آخرُ أي مجهولةٌ عندك وعند قومك، أو حالٌ من الهاء، في ﴿نُوحِيهَآ﴾، أو الكافِ في ﴿إِلَيْكَ﴾، أي: جاهلًا أنت وقومُك بها[3]. فعلى تقدير الخبر: (تلك من أنباء الغيب موحاةٌ إليك، مجهولةٌ عندك وعند قومك)، فيكون الإخبار بكونها وحيًا، وأنّها مجهولة لديهم، أخبارًا تساق للعلم بذلك، تأكيدًا لصحّة

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/101.
(2) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 5/168.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/100، وينظر: أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/215.

الوحي، وعلى تقدير الحال: (تلك من أنباء الغيب أشير إليها في حالة كونها متّصفةً بحالة الوحي وحالة جهل المتلقّي بها)، والغرض من الحال: تصوير الهيئة الّتي جاءت بها تلك الأنباء.

معنى حرفِ ﴿مِن﴾ ودلالته:

نفيُ العلم بأنباءِ القصصِ ممتدٌّ من لحظة الإيحاءِ امتدادًا مطلقًا

أدخل النّظم البليغ حرفَ ﴿مِن﴾ على الظّرف الدّالّ على الزّمن (قبل) في قوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾، فلمّا "كان زمانُ خفاء ذلك عنهم - وإن كان عامًّا لهم - بعضَ الزّمان الماضي، أدخل الجارّ فقال: ﴿مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾، أي من إيحائي إليك، حتّى يطرق الوهم حينئذٍ أنّك تعلمتها من أحد منهم"[1]، فأشار بذلك إلى أنّ العلم بتفاصيل قصّة نوح، جاء بعد الوحي بها، تصريحًا بانتفاء علمه، وقطعًا لسبيل الطّعن عن مبتغِي الطّعنِ، بسماعه إيّاها من أهل الكتاب، والمعنى: نفيُ العلم ابتداءً من قبل نزول القرآنِ رجوعًا إلى سابقِ الزّمانِ، فهو نفيٌ ممتدٌّ منذ لحظة نزول القرآن بأنباء هذه القصّة إلى ما قبل النزول امتدادًا مطلقًا.

دلالةُ اسم الإشارةِ:

انتفاء العلم بالغيب عن كلِّ أحدٍ شاملٌ للزّمان كلّه

يدلّ اسم الإشارة في قوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ على الإشارة إلى القرآن، ويصحّ أن يكون إشارة إلى الوقت، باعتبار ما في هذه القصّة من الزّيادة على ما ذكر في أمثالها ممّا تقدّم نزوله عليها، أو أنّها إشارة إلى النّبأ في قوله: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾، فيكون تذكير اسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾، بعد تأنيثه ﴿تِلْكَ﴾ شبيهًا بالالتفات[2]. وسواء أكانت الإشارة إلى الوحي بالقرآن، أو إلى زمان الوحي، فالمؤدّى واحد، وهو انتفاء علم النّبيّ ﷺ ومن معه عن العلم بمضمون الخبر.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/305.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/93.

معنى الفاءِ ودلالتُها:

الـــصّـــبر عـلى المـعـانـديـن، للعلم بما حلّ بأمثالهم من السّابقين

أدخل النّظم الجليل حرفَ الفاء، في قوله عزّ ذكره: ﴿فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾، لما فيها من دلالةٍ على التَّفريعِ والتّرتيب، ووجهُ تفريعِ أمرِ الرّسُولِ بِالصّبرِ على هذِهِ القِصّةِ أنّ فِيها قِياس حالِهِ مع قومِهِ على حالِ نُوح ﷺ مع قومِهِ، فكما صبر نُوح ﷺ فكانتِ العاقِبةُ لهُ كذلِك تكُونُ العاقِبةُ لك على قومك[1]، وهي "لترتيب ما بعدها على ما قبلها؛ إذ ترتّب على القصص الحقّ وما فيه من معاندة الكافرين، ونزول آية الله فيهم بالإغراق؛ الأمرُ بالصّبر حتّى يرى آية الله في المشركين من قريش، وإنّها آتيةٌ لا محالة، وإن كانت المجاهدة حتّى صارت كلمة الله هي العليا"[2].

غرضُ الأمرِ ونكتتُه:

الـصّـبر سبيلُ الأنقياء، ومنهجُ الأنبياء، ومآلُ الأتقياء

جاء الأمر في قوله تبارك اسمه: ﴿فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾؛ للنّبيّ ﷺ بالصّبر إرشادًا وتسليةً وإشارة إلى المشابهة بين الرّسول الأوّل نوح ﷺ، والرّسول الخاتم ﷺ؛ إذ كما صبر الأوّل، يجب أن يصبر الآخِرُ، وإشارة إلى أنّ كلّ شيء بالصّبر يهون، وأنّ به يسلس الحرون، أي "﴿فَٱصۡبِرۡۖ﴾ على ذلك ولا تفتر عن الإنذار، فستكون لك العاقبة كما كانت لنوح لأجل تقواه"[3]، وقد قال الشّعر الحكيم في هذا المضمار:

الصَّبْرُ مفْتاحُ ما يُرَجَّى *** وكُلُّ أمْرٍ بِهِ يَهُونُ

فاصْبِرْ وإنْ طالَتِ البَلايا *** فَرُبَّما أسْلَسَ الحَرُونُ

ورُبَّما نِيلَ باضْطِبارٍ *** ما قِيلَ هَيْهاتَ لا يَكُونُ[4].

توجيهُ تخصيصِ المتقين بالذِّكر:

الاكتفاء بالمعاني الجامعةِ منهجُ القرآنِ في التّنبيهِ على غيرِها

اقتصر النّظم الكريم في قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/93.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3714.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/306.
(4) الخادمي، بريقة محموديّة: 3/79.

لِلْمُتَّقِينَ﴾ بذكر التّقوى، وجعل العاقبة لهم دون الصّبر، فلم يقل: (إنَّ العاقِبَةَ لِلصّابِرِين) أو (المحسنين) أو (المؤمنين)؛ لدخول الصّبر في عموم مفهوم التّقوى، ولأنَّ التقوى سبيل المحسنين، ولأنَّ الإيمانَ شرطُ التقوى؛ فهذا من الإيجاز البليغ، فاكتفى بذكرِ المعاني الجامعة للدّلالةِ على غيرِها، فمن كان تقيًّا كان صبورًا نقيًّا.

غرضُ التَّوكيدِ:

ما يراه البشرُ ظاهرًا قاصرٌ عن باطنِ الحقيقةِ فحسُن معه التَّوكيدُ

جاء الخبر في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾، مؤكّدًا بكونه جملة اسميّة وبالحرف ﴿إِنَّ﴾ تأكيدًا على تحقّق مضمونها، وهي بشارة لا يتوقّعها من قصُر نظره، وغاب عنه المشهد الشّامل، وقد كان النّبيّ ﷺ يمثّل هو وأصحابه الصّبر والتّقوى في أقصى تجلّياتهما، ممّا يسلّيه ويُطمئنُ أصحابه إلى الفرج القادم مهما ادلهمّت الخطوب. وفي ذلك إشارة إلى "أنّ التّقوى هي السّبب في حسن العاقبة، والنّصر المبين لمن خاف واتّقى"[1]، وكأنّه يقول له: ﴿فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾؛ لأنّك قد عرفت الآن نتيجة صبر نوح عليه السلام الّذي استمرّ ألف سنة إلّا خمسين عامًا، ويأتي بعدها قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾"[2]؛ للتّأكيد على أنّ المصابرة كانت نتاج التّقوى والخشية من الله، وقد صبر نوح على الأذى الشّديد، والزّمن المديد، خشية لله، ورجاء نصره وحماه.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الوحي والتّنزيل:

الوحي إعلام بخفاء متعدّد الكيفيّات، والتّنزيل علَمٌ على ما نزل به جبريل عليه السلام

الوحي أصْلُه يَدُلُّ عَلَى إلْقاءِ عِلْمٍ فِي خَفاءٍ[3]، ويقال للكلمة الإلهيّة الّتي تُلقى إلى أنبيائه وأوليائه: وحي، وذلك أضرب حسبما دلّ عليه

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3714.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 16492.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وحي).

قوله تعالى: ﴿*وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [الشّورى: 51]، وذلك إمّا برسول مشاهد تُرى ذاتُه ويُسمع كلامُه، كتبليغ جبريل عليه السلام للنّبيّ ﷺ، في صورة معيّنة، وإمّا بسماع كلام من غير معاينة، كسماع موسى عليه السلام كلام الله، وإمّا بإلقاء في الرّوع وبالإلهام، نحو: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: 7]، وإمّا بتسخير، نحو قوله: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النّحل: 68]، وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ﴾ [الأنبيّاء: 25]. فهذا الوحي هو عامّ في جميع أنواعه[1]، أمّا التّنزيل فهو وصف عن كونه نزل من الله تعالى بواسطة، كقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾ [الشّعراء: 193] النّزول: الهبوط من علوّ إلى سُفل[2].

(1) الرّاغب، المفردات: (وحي).
(2) السّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (نزل).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والعشرون، سورة هود من الآية 41 إلى الآية 114
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والعشرون، سورة هود من الآية 41 إلى الآية 114 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 21 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك :978-9948-768-18-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 21 : المجلد الحادي والعشرون، سورة هود من الآية 41 إلى الآية 114.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي :978-9948-768-18-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9725944 بتاريخ 2024/02/06م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»